من وحي أبي تمام

اللغة والأدب في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي

الدكتور يوئيل يوسف عزيز

اثارت ذكرى ابي تمام حب الاستطلاع عندي ، فرحت اتساءل عن حال اللغة والادب في انكلترا في الفترة التي عاش فيها هذا الشاعر العربي . ان مثل هذه الدراسة تكمل الدراسات الاخرى عن ابي تمام وعصره .

وتجعلنا نرى هذا الشاعر في اطار اوسع . وبذلك نستطيع ان نوازنه مع غيره ونعطيه حقه كاملا . اذ ان توسيع افق النظر من شأنه ان يجعلنا نرى الاشياء بابعادها الحقيقية ، ويساعدنا على دراستها دراسة علمية موضوعية .

وبصدد تاريخ مولد ابي تمام ووفاته فان الاراء تتباين . فالاستاذ « كب » Gibb يجعل عام ٨٤٦م تاريخ وفاة الشاعر . ولا يذكر متى ولد هذا الشاعر «١» في حين يعتبر « نيكلسن » Nicholson عام ٨٥٠م هو الصحيح «٢». وتقول دائرة المعارف الاسلامية : ان ابا تمام ولد عام ١٨٨ هـ ٨٠٤ م وتوفي في ٢٣١ هـ ٨٤٥ م على ما رواه ولده . اما الشاعر نفسه فكان يقول انه ولد في ١٨٩ هـ . ويرجح صاحب دائرة المعارف الاسلاميه ان الشاعر توفي عام ٢٣٢هـ ٨٤٦ م . ويظهر من هذا ان الشاعر عاش في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي . فتحديد الفترة على هذا الشكل يناسب الدراسة الادبية ، ولننتقل الان من الشرق الى الغرب ، الى انكلترا لنلقي نظرة مجملة على ادبها ولغتها في تلك الفترة .

يعود تاريخ اقدم المؤلفات الادبية الانكليزية المتوفرة لدينا الى عام ٧٠٠ م على وجه التقريب «٣». اذاً ، يعتبر النصف الاول من القرن التاسع الميلادي

1 H.A.R. Gibb, **Arabic Literature** (Oxford, 1966), P.85

2 Reynold, A. **Nichols or Aliterary History of the Arabs** (cambridge, 1966), P. 129

3 A. Baugh, **A History of the English Language** (London, 1968) p 60 .

فترة متقدمة في دراسة اللغة الانكليزية وآدابها ، ويحتاج الباحث في هذه الفترة الى الملم جيد باللغة الانكليزية القديمة Old English . وهي لغة تختلف اختلافا كبيرا عن الانكليزية الحديثة Modern English ، من حيث مفرداتها ، ولفظها ، وقواعدها . وهي للقارىء الانكليزي المعاصر كاللغة الالمانية ، لا يفهمها الا بعد دراسة خاصة . لقد عاشت هذه اللغة القديمة حتى جاء الغزو النورمندي Norman Conquest لانكلترا في عام ١٠٦٦ ، فكان لهذا الغزو اثر كبير على لغة البلاد . فتغيرت كثير من معالم هذه اللغة حتى استحقت تسمية جديدة هي اللغة الانكليزية الوسطى Middle English التي ظلت مستعملة في انكلترا حتى نهاية القرن الخامس عشر . ويعتبر القرن السادس عشر بداية اللغة الانكليزية الحديثة. ان هذه التواريخ تستخدم ايضا في تقسيم الادب الانكليزى الى فترات متميزة . فيدعى ادب الفترة الاولى بالادب الانكليزي القديم ، وادب الفترة الثانيه بالادب الانكليزي المتوسط ، وادب الفترة الاخيره ، بالادب الانكليزي الحديث .

وثمة صعوبة تواجه دارس الادب الانكليزي القديم ، ولا سيما اذا اراد حصر بحثه في نطاق فترة معينة كما هي الحال في هذا المقال وتتمثل هذه الصعوبة في تحديد تواريخ المؤلفات الادبية تحديدا دقيقا ، ومعرفة كتاب هذه المؤلفات «١» . إن جميع ماجاءنا من الشعر الانكليزي القديم نجده في اربع مجاميع : المجموعة الاولى هي المخطوطات التي جمعها «كوتن» سير روبرت ، Sir Robert Coiton ، وهي في المتحف البريطاني الآن ، ومجموعة « اكستر » Exeter ، وقد اهداها الى كاثدرائية اكستر الاسقف «لوفريك» Leofric عام ١٠٥٠ ، ومجموعة « فيرجلي » Vercelli ، وقد وجدت في فيرجلي بالقرب من ميلان عام ١٥٢٢ ، ولم يفسر احد بشكل مقنع كيف وصلت هذه المجموعة الى ذلك المكان ، واخيرا المخطوطات

1- **A Literary History England,** ed. A. Baugh (London, 1967), p. 22

التي في مكتبة «بو دليان» Bodleian باوكسفورد، وهي التي اهداها الباحث الهولندي فرانسس دوجون «اوجونيوس» Francis Dujon «او جونيوس Gunius» الى ايرل اف ارندل Earl of Arundel . ان اكثر هذه المخطوطات تغفل اسم الشاعر وتاريخ نظم القصيدة والمكان الذي كتبت فيه . وحتى في الحالات التي يذكر فيها اسم الشاعر، فانه يبقى مجرد اسم ، لا نعرف شيئا عن الزمن الذى عاش فيه ولا عن المنطقة التي عاش فيها .

اذن . فالمعلومات المتوفرة لدينا عن ازمنة الآثار الادبية ومؤلفيها والاماكن التي تنسب اليها تخضع لكثير من الحدس والتخمين . ولنعد الان الى الفترة التي نحن بصدد دراستها — ٨٠٠ الى ٨٥٠ م— ونلقي نظرة سريعة على بعض الحوادث المهمة التي سبقتها . لقد غزت الجزيرة البريطانية قبائل جرمانية اتت من شمال اوربا واواسطها وكانت هذه الغزوات على فترات متباعدة في بادىء الامر ثم ازدادت واخذت القبائل الغازية تستوطن في الجزء الجنوبي من الجزيرة، وعلى الساحل الشرقي ، وكان ذلك في مستهل القرن الخامس الميلادي ، ويذكر مؤرخو ذلك العصر «١» ان اولئك الغزاة كانوا ينتمون الى ثلاث قبائل كبيرة هي : «الانكلس» Angles ، « والساكسونس » Saxons « والجوتس » Jutes . ولم تكن العلاقـة بين هؤلاء الغزاة والسكان الاصليين « الكلتس » Celts علاقة صداقة في بادىء الامر . اذ تشير كتب التاريخ الى حروب ومذابح وقعت بينهم ، ثم تتمدن هذه القبائل شيئا فشيئا ، وما ان يوشك القرن السابع على نهايته حتى نراها قد كونت دويلات صغيرة لبعضها لهجاتها المختلفة وادبها الخاص بها ، وإن كانت جميع هذه الدويلات تتكلم لغة واحدة هي الانكليزية القديمة — او كما يسميها البعض — الانكلوساكسونية

---

(١) انظر مثلا

1- Bede, **Historia Ecclesiastica Gentis Anglorum**, Trans. Leo Sherley – Price (Penyuin, 1968), P. 56 .

Anglo - saxon . واشهر هذه الدويلات —على ما يذكر المؤرخون— سبع هي : « نورث امبريا » North Umbria ، و « مرشيا » Mercia و « ايست انكليا » East Anglia و « كنت Kent ، و « ايسكس » Essex ، و « وسكسن » Sussex و « وسكس » Wessex . ثم يحل القرن التاسع ، فيظهر ملك قوى طموح ذكي في « وسكس » هو « اكبرت » Egbert « ٨٠٢—٨٣٩م » . ويحاول ضم بقية الدويلات الى مملكته ، فيتم له ذلك عام ٨٣٠م ، ويصبح « اكبرت » سيد انكلترا ، يدين له زعماء الدويلات الأخرى بالولاء . وهكذا ، فقد اصبحت « وست ساكسون » —او وسكس —اقوى واكبر مملكة بين هذه الدويلات . ولقب هذه ملوكها انفسهم بملوك انكلترا . وقد بلغت هذه المملكة درجة كبيرة من الرخاء وانتشرت في ربوعها المعرفة انتشارا ملحوظا ، وذلك في عهد الملك الفرد Alferd « ٨٧١—٨٩٩م » ، وسنتحدث عن هذا الملك العظيم عند الكلام عن النثر في القرن التاسع .

لوزار زائر من الشرق انكلترا في ايام ابي تمام لوجد الناس هناك يتكلمون لهجات كثيرة اهمها اربع هي لهجة « نورث امبريا » وموطنها شمال نهر «همبر» Humber ، ولهجة «ميرشيا» Mercia وموطنها بين نهر «همبر» ونهر «التمس» ، ولهجة «كنت» Kent في جنوب شرقي انكلترا ، ولهجة وست ساكسون او — وسكسن — وموطنها في جنوب غربي انكلترا غير ان ما جاءنا من ادب هذه الفتره يكاد يكون كله بلهجة « وست ساكسون » اما الادب الذي كتب باللهجات الاخرى فقد فقد كله تقريباً ، ولم يبق منه سوى جزء يسير نجده مبعثراً هنا وهناك في المخطوطات التي وصلت الينا

لم يكن النصف الاول من القرن التاسع عهد سلام واستقرار في انكلترا اذ اخذت قبائل دانماركية تغزو الساحل الشرقي والجنوبي من الجزيرة البريطانية . وقد بدأت هذه الغزوات في نهاية القرن السابع ، وكان هؤلاء الغزاة وثنيين ، عملوا السيف في رقاب الناس واضرموا النار في

الاديرة ،وهي آنذاك منبع المعرفه.فحرقوا دير «لندزفيرن» Linds Farne وهو احد مراكز العلم والمعرفة ــ عام ٧٩٣م «١» .ونهبوا في العام التالي دير «جارو» Jarrow . وهو الدير الذي عاش فيه المؤرخ والكاتب الانكليزي «بيد» Bede صاحب الكتاب القيم « التاريخ الديني للانكليز » Historia Ecclesiastica Centis Argrorum. وهو كتاب فريد يكاد يكون المصدر الوحيد للفتره التي كتب عنها المؤلف «٢» . واستمرت هذه الحال في القرن التلي : اذ يشاهد المسافر في « نورث امبريا »و« ميرشيا »في القرن التاسع الكنائس والاديرة الخربة في كل مكان «٣» . ولعل جزءا كبيرا من ادب هاتين المنطقتين قد التهمته النيران،او بقي تحت الانقاض فخسرناه. وهذا يفسر قلة ما وصلنا من لاداب المكتوب بلهجات هذه المناطق من انكلترا .

يعتبر المؤرخون عام ٨٥٠م بنهاية المرحلة الاولى للغزوات الدانماركية. وقد ذكرت « الوقائع الانكلو ساكسونية »Anglo - Saxon Chronicle ان هذه الغزوات بدأت في ٧٨٧ م واستمرت على فترات متقطعة وامتازت بالحرق والقتل والنهب، وقد قامت بها جماعات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض. ثم كانت المرحلة الثانية التي شاهدت عددا كبيرا من الدانماركيين ينزلون على سواحل انكلترا بسفنهم الكثيرة، وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع، وهي مرحلة شاهدت انتصار اولئك الغزاة واستيطانهم في مناطق كثيرة، واستيفاء الجزية من اهل البلاد . غير انهم، مع بسالتهم ومهارتهم في الحرب اندحروا اندحارا شنيعا امام رجال الملك « الفرد » عام ٧٧٨ ، وسلمت مملكة « وسكس » من شر هؤلاء الهمجيين وفيما عدا « وسكس » فقد سقطت جميع المناطق الاخرى بيد الدانماركين وسكنوها، فدعيت هذه المناطق فيما بعد بـ « دينلو » Danelaw لقد ترك الدنماركيون الذين استوطنوا انكلترا اثرا مهما في اللغة الانكليزية. ويمكننا ان نكون بعض الفكرة عن اهمية هذا الاثر اذا علمنا ان ضمائر جمع الغائب، وكذلك ضمائر الاشارة. They, them, their(s). this, that, these, those

1 Baugh, History, P.100

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

المستعملة في الانكليزية الحديثة هي دانماركية الاصل، حلت محل الضمائر الانكلوساكسونية في هذه الفترة كما ان هناك عددا ملحوظا من المفردات الدانماركية دخلت الانكليزية آنذاك ولا تزال شائعة حتى يومنا هذا، منها، egg « بيضة » و scale « ميزان » و race « عنصر، عرق » و leg « ساق » و window « شباك » وغيرها من الكلمات المألوفة .

كثيرا ما تكون دراستنا لادب فترة معينة عن طريق دراسة ادباء تلك الفترة — ولا سيما الفطاحلة منهم—فاذا حاولنا تطبيق هذا الاسلوب على دراسة الشعر القديم وجدنا انفسنا امام معضلة كبيرة، وهي ان جميع ما وصلنا من هذا الشعر يكاد يكون بقلم شعراء مجهولين«١».ويستثنى من هذا الشاعر « كوني ولف » Cyne wulf فقد اعتاد هذا الشاعر ان يذيل قصائده بتوقعه مكتوبا بحروف « الرون » rune «٢».ولانعرف على وجه الدقة متى ولد هذا الشاعر ولا تاريخ وفاته ، بل كنا نجهل حتى اسمه منذ قرن واحد. اما الآن فالرأي السائد انه عاش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع في مقاطعة « انكليا » وكتب ما لا يقل عن اربع قصائد في مواضيع دينية. وقد نسب بعضهم الى هذا الشاعر جميع ما جاءنا من الشعر المسيحي للعصر الانكلوساكسوني غير ان هذا مشكوك فيه .

ويتفق النقاد الآن ان « كوني ولف » هو الذى الف قصيدتي « جوليانا » Juliana و « ايلين » Elene وهما ترويان اسطورة القديستين. وهو كذلك مؤلف قصيدة « مصير الرسل » The Fates of the Apostles وهي تروي بايجاز مصير عدد من الرسل. اما القصيدة الرابعة فهي « المسيح » Crist ولعل « كوني ولف » كتب الجزء الثاني منها فقط . وتروي هذه القصيدة قصة ميلاد المسيح وصعوده الى السماء، ويوم الدنيونة وهي قصيدة غامضة مرتبكة معقدة. إن ابيات هذا الشاعر سلسة عذبة واسلوبه سهل طليق في القصائد التي

(1) A Literary History of England, P. 70.

(٢) الحروف التي كانت تستعمل في انكلترا قبل مجيء القبائل الجرمانية، استعملها كتاب الكليتك

تعتمد على الترجمة، او تلك التي يستمدها المؤلف من التاريخ. ولكن ابياته تأتي غامضة معقدة في القصائد التي لا تعتمد على الترجمة او التاريخ وهذا ما نلاحظه في قصيدة « ايلين » .

يغلب الطابع الديني على عدد كبير من قصائد الشعر الانكليزي القديم. ثم إن جزءاً كبيراً من هذا الادب مكتوب باللاتينية. غير ان اعظم ملحمة في هذا الادب ليست دينية في موضوعها وان كانت تحوى على عناصر دينية وتدعى هذه الملحمة « بيولف » Beowulf

إن ملحمة « بيولف » لا تدخل في دراستنا هنا، اذ انها جاءت الى انكلترا مع الغزاة الجرمانيين قبل نحو قرنين ونصف من العصر الذي نحن بصدده. وظل يغنيها شاعر البلاط في الولائم والمناسبات حتى عام ٧٠٠م. وفي وقت ما بعد هذا التاريخ، وفي مكان ما في انكلترا، دونت هذه الملحمة العظيمة باللغة الانكليزية القديمة. ولا يعرف من قام بكتابتها، غير انه من المرجح ان يكون احد رجال الدين، حيث انه ادخل شيئا من العناصر الدينية في هذه الملحمة التي تروي قصة حياة القبائل الجرمانية يوم كانت تعيش في القارة الاوربية، اي قبل مجيئها الى انكلترا. اما القصيدة بشكلها الحاضر فقد دونت حوالي عام ١٠٠٠م. إن هذه الملحمة تروي في ظاهرها قصة الصراع بين البطل الفاضل والملك المثالي «بيولف» وبين الوحوش ، ولكن لها معنى اعمق هو الصراع بين قوى الخير وقوى الشر .

يعتبر النقاد القرن التاسع بداية النثر الادبي، غير ان هذه البداية تأخرت بعض الوقت عن النصف الاول من ذلك القرن. اذ يقول النقاد ان هذا النوع من الادب بدأ في عصر الملك «الفرد» الذي سبق الاشارة اليه . ولد هذا الملك العظيم بعد نحو ثلاث سنوات من وفاة ابي تمام ،وترعرع في مملكة وسكس وشب مع حب العلم والادب. وقد تولى مقاليد الحكم في عام ٨٧١م والبلاد يهددها الغزاة الدانماركيون ويعيثون فيها فسادا. فدمر الاعداء بعد معارك كثيرة ضارية، ومع انشغاله بالحروب فقد وجد متسعا من الوقت

قضاه في طلب المعرفة. اذ رأى ان العلم والادب في انكلترا في حالة يرثى لها، فهو يقول في مقدمة ترجمة «كيوراباستورالس» Cura Pastoralis «١»:

«كثيرا ما اتذكر الماضي» ما اسعد تلك الايام حين كانت انكلترا تزخر بالعلماء، والسلام يعم المملكة، والنجاح حليف ملوك هذه البلاد في الحرب وفي كسب الحكمة. وكان رجال الدين تواقين الى العلم والمعرفة والى تأدية كل الخدمات التي فرضها عليهم الله عز جلاله. وكان طلاب العلم يأتون من خارج البلاد يبغون المعرفة هنا، ولم يكن اهل البلاد بحاجة الى السفر الى الخارج طلبا للعلم. كيف تدهورت الاحوال في هذه المملكة تدهورا كبيرا حتى ان قليلا من الناس ممن في جنوب «همبر» «٢» يستطيعون قراءة الانكليزية وفهمها والترجمة من اللاتينية اليها، ولا اعتقد ان في شمال «همبر» عددا كبيرا من الناس يستطيعون ذلك. كما لا اظن ان في جنوب «التمس» احدا يملك هذه المعرفة منذ ان توليت الحكم، ويعلم الله عز وجل انه ليس بيننا عالم واحد، لذا فآني امركم— ولا اخال الا انكم تفعلون ما اقوله— ان تحصلوا من معرفة الدنيا التي تجهلونها، وان تكسبوا من حكمة الله تعالى التي جعلها في هذه الارض، كلما استطعتم الى ذلك سبيلا...» «٣»

لقد شخص هذا الملك الداء الذي اصاب بلاده وعرف الدواء. فهو يقول في مكان اخر من هذه المقدمة: ان الناس لا يفهمون الكتب لانها ليست بلغتهم. لذا فقد اقدم على خطوة بسيطة ولكنها ثورية «٤» فعزم ان يكتب بالانكليزية وان يترجم عددا من مصادر المعرفة من اللاتينية الى الانكليزية وقد قام بذلك فعلا. فالى هذا الملك او الى تشجيعه يعود الفضل في ترجمة الكتب اللاتينة التالية: «كيوراباستورالس» للبابا كريكوري، و«تاريخ العالم» History of the World لـ«اوروسيوس» Orosius ، و«عزاء الفلسفة»

---

(١) الفها البابا كريكوري العظيم Pope Gregory The great

(٢) نهر في شمال انكلترا

(٣) Sweet Anglo-Sxxon Reader,,ed. Dorothy white tock (Oxford, 1967), PP.4–5

(٤) **Lilerary History of England**, P.96.

De Consolatione Philosophiae لـ«باوثيوس» Boethins و«التاريخ الديني للانكليز» لـ «بير». وهكذا فقد اراد الملك ألفرد ان يقدم كل ما يملكه من المعرفة الى ابناء شعبه. ولعله كان يعتقد ان الخلود يأتي عن طريق العلم والمعرفة وليس عن طريق الجلوس على العرش. فهو يقول عند ترجمته لكتاب «باوثيوس»

رغبت في عمل امرن به قابلياتي لئلا تندثر مواهبي وطاقتي ويواريها النسيان. فكل موهبة طيبة وكل طاقة سرعان ما تهرم وتختفي عن الاسماع ان لم تدخل اليها الحكمة... واوجز فاقول كنت دائما اريد ان اعيش بشرف ما دمت على قيد الحياة، وبعد مماتي اترك للذين يأتون من بعدي ذكراي في الاعمال الطيبة »«١» .

ما اشبه هذا الملك في حبه للعلم والمعرفة بالخليفة المأمون الذي سبقه بنحو نصف قرن.

وقد نتج عن اهتمام الملك الفرد بالانكليزية والكتابة بها ميلاد النثر الادبي الانكليزي. اما ما كتب نثرا قبل هذه الفترة فيكاد يكون كله باللاتينية. وهناك جزء يسير من النثر مكتوب بالانكليزية نجده في بعض القوانين والوقائع التاريخية، غير انه لا يستحق اسم النثر الادبي. «٢» حقا ان النثر الذي كتبه الفرد كثيرا ما يكون ترجمة حرفية عن اللاتينية، له اسلوب معقد ركيك، ولكن يجب ان نتذكر انه هو الذي بدأ هذا النوع من الادب ومهد السبيل لمن جاء بعده

قلنا: ان اللغة الانكليزية في هذه الفترة تدعى باللغة الانكليزية القديمة. وقد تطورت عن الساكسونية القديمة التي اتت بها القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي. واللغة الانكليزية القديمة تشبه اللغة العربية في ناحية واحدة، هي انها لغة تركيبية Synthetic تبين وظيفة الكلمة في الجملة عن طريق تغيير اواخر الكلمات ـ اي الاعراب ـ وهي بهذا تختلف عن الانكليزية الحديثة التي قلما تتغير اواخر الكلمات فيها؛ بل تبين وظيفة الكلمة في الجملة عن طريق ترتيبها وموقعها في الجملة. وتسمى اللغة التي من هذا

(١) النص الانكليزي في

E–Legouis, Ashort History of English Literature (Oxford, 1968) P. 14

(2) Legouis, P. 13.

النوع باللغة التحليلية Analytic .

اما مفردات الانكليزية القديمة فتكاد تكون كلها من اصل انكلوساكسوني ولم يبق من هذه المفردات في الانكليزية الحديثة الا ١٥ ٪ من الاصل «١». ثم اختلاف في لفظ الحروف بين الانكليزية القديمة والانكليزية الحديثة ولا سيما في حروف العلة ذات النطق الطويل مثل: (A) وقد تطورت في الانكليزية الحديثة الى (O) في بعض الكلمات مثل : bone - ban «عظم». وتطور حرف (i) الى (ai) وهو صوت طويل ، كما في right - riht «حق» وهكذا. اما حروف العلة القصيرة فلم تتغير كثيرا. وهذا يصح على الحروف الصحيحة Consonants ايضا « عدا ان الانكليزية القديمة» كان لها حرف او حرفان لا نجدهما في الانكليزية الحديثة مثل الحرف القريب من «خاء» العربية وكان يكتب (h) كما في كلمة leoht «ضوء» و riht «حق». وكانت الانكليزية القديمة تكتب (sc) لتعبر عن الصوت (sh) . وتميز بين th في thin و then فتكتب الصوت الاول (O) والصوت الثاني (J) . اما املاء الكلمات فلم يكن قد استقر بعد. فكان الكتاب يختلفون فيما بينهم في كتابة الكلمة الواحدة. بل ان الكاتب الواحد كان في بعض الاحيان يكتب الكلمة باشكال مختلفة. فضمير جمع الغائب مثلا نراه يكتب على عدة اشكال منها hee , he , hi , hy , hie وهذا مما يزيد في صعوبة الانكليزية القديمة.

اما قواعد هذه اللغة فكانت معقدة تشبه في بعض النواحي قواعد اللغة العربية. فكان للاسم اربعة او خمسة مواقع لاعراب المفرد، للجمع مثلها. وكانت الصفات تعرب كالاسماء؛ ولها في ذلك اسلوبان :اسلوب يسمى بالضعيف Weak ويستعمل في الصفات المعرفة. واخر يدعى بالقوي Strong ، ويستخدم في الصفات غير المعرفة. وكانت الاسماء على ثلاثة انواع هي: المذكر والمؤنث والجماد . ولم يكن التمييز بين هذه الاجناس

(1) Baugh, History, P. 63

يعتمد على المنطق Logicelgunder بل على القواعد Grammatical-Gender. فكلمة Stan «حجر» مثلا مذكر، وكلمة Wif man «امرأة» مذكر وكلمة Magden «فتاة» جماد. وكانت اداة التعريف تختلف باختلاف جنس الكلمة وعددها من حيث انها مفرد او جمع.

اما الضمائر فكان لها ضمير المثنى — كالعربية — فضلا عن ضمير المفرد وضمير الجمع. وكانت هذه الضمائر كالاسماء لها اربعة او خمسة مواضع اعراب. اما الافعال فلها ايضا قواعد صرف معقدة. وهي تقسم عادة الى سبع صيغ اساسية، تختلف كل صيغة في صرفها عن الاخرى، وثم صيغ اخرى ثانوية.

لقد تخلصت الانكليزية من كثير من هذا التعقيد بعد الغزو النورمندي. واستقرت بشكلها الحاضر بعد القرن الخامس عشر. وقد تأثرت اللغة الانكليزية خلال سيرها الطويل منذ القرن التاسع حتى هذا اليوم بلغات كثيرة. اهمها اللاتينية والفرنسية والدانماركية والاغريقية والايطالية والالمانية والهندية والفارسية والعربية وغيرها من اللغات.

ولعل من الطريف ان نذكر هنا ان اقدم اثر للغة العربية في اللغة الانكليزية جاء في القرن التاسع، وفي نثر الملك الفرد نفسه. فقد وردت كلمة Nancessa في موضع اخر من مقدمة « كيورا باستورالس » التي ذكرناها والكلمة هذه مشتقة من الكلمة العربية «منقوش». وقد وردت بصيغتها اللاتينية Mancus في كثير من الوثائق التي كتبت في فرنسا وايطاليا واسبانيا واطلقت في احدى وثائق Du Cange «دوكانجي» على نوع من الحلى التي كانت تلبسه المرأة آنذاك. «١» ثم دخلت الكلمة الانكليزية القديمة واطلقت على عملة يقارب ثمنها ٣٠ شلنا «٢».

---

(1) O E D, s. v. manals.

للاستاذ عبد المنعم رشاد رأي اخر في اصل هذه الكلمة. فهو يرى ان اصلها (المنقوص) نوع من العمله كان مستعملا في البلاد العربية آنذاك.

(٢) ٣ شلنات بالعملة الانكليزية الحديثة (بعد عام ١٩٧٠).

واغلب الظن ان الكلمة العربية دخلت اللاتينية عن طريق التجارة «١» او الترجمة . وبقيت هذه الكلمة مستعملة في الانكليزية حتى بطل استعمال هذا النوع من النقود ، فانقرضت الكلمة على اثر ذلك .

ولعل من المفيد ان نختم هذا المقال بعقد موازنة قصيرة بين الانكليزية وآدابها واللغة العربية وآدابها في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي .
يظهر مما ذكرناه في اعلاه ان الشعر الانكليزي في تلك الفترة كان لايزال في بدايته . فقد كانت اوزانه محدودة ، بل كان له وزن واحد هو ما يسمى عليه بقافية الابتداء Alliteraltion ؛ اي ان تبدأ بعض الكلمات من الصدر والعجز بحرف واحد . وكان هذا الشعر خشن النغمة تطغى الحروف الصحيحة ، وتنقصه الرقة والسلاسة والنغمة الموسيقية التي ادخلها اليه النورمانديون بعد الغزو «١٠٦٦م» . اما الشعر العربي فكان قد بلغ شوطا طويلا في تقدمه واكتسب ثروة طائلة تضم الشعر الجاهلي بمعلقاته الجميلة والشعر الاموي وشعر العصر العباسي الاول . وقد تكاملت اوزان هذا الشعر ودرست «درسها الخليل بن احمد الذي توفي عام ٧٩١م» .
اما فيما يتعلق بالفترة التي نحن بصدد دراستها ، فيكفي ان نذكر ثلاثة من شعرائها البارزين هم : ابو نواس «توفي عام ٨١٠م» وابو العتاهية «توفي٨٢٨م» وابو تمام . كي نقدر البون الشاسع بين مابلغه الشعر العربي وما كان عليه الشعر الانكليزي .

لا نجد في النصف الاول من القرن التاسع نثرا أدبياً في الانكليزية ،اذ بدأ هذا النثر في النصف الثاني من ذلك القرن — كما ذكرنا في اعلاه — على يد الملك الفرد والادباء الذين استقوا وحيهم منه . وكان هذا النثر يتصف بكثير من الركاكة والتكلف نتيجة تأثره باللاتينية .
ثم شاهد بعض التطور في القرن التالي ، حتى جاء الغزو النورماندي فاصيب بنكسة كبيرة ، لم يستطع ان يتخلص منها تماما الا في مستهل العصور الحديثة

(١) لاحظ Nicholson, P. 281

اي بعد القرن الخامس عشر .

اما النثر الادبي الجيد فلا نجده الا بعد القرن السادس عشر ، اي بعد عصر شكسبير «١٥٦٤–١٦١٦م». ماذا عن النثر الادبي في العربية؟ لقد ظهر هذا النثر قبل النثر الادبي الانكليزي، اذ يقول الاستاذ «كب» ان اقدم ما جاءنا من النثر الادبي في العربية يعود الى النصف الاول من القرن الثامن. ويتمثل في ثلاث رسائل الفها عبد الحميد بن يحي «توفي في ٧٥٠ م » «١». وقد تطور هذا اللون من الادب على يد ابن المقفع «توفي في ٧٥٧م» . ثم «شاعت صناعة الورق في بغداد حوالي عام ٨٠٠ م » «٢» . فأتيحت للمؤلفات النثرية فرصة طيبة. وبلغ النثر درجة ملحوظة من التقدم في القرن التاسع على يد الجاحظ «توفي في ٨٦٩م» وابن قتيبة «توفي في ٨٨٩م» وغيرهما من الكتاب ، في حين كان النثر الانكليزي ما زال في طفولته ضعيفا يتعثر في سيره. ثم ظل النثر العربي يتطور ويكسب كثيرا من عناصر القوة مدة من الزمن؛ تدهوره حتى كان بمجيء الحكم المغولي والحكم العثماني«٣». ويصادف هذا التدهور بداية ظهور النثر الانكليزي الجيد.

يرتبط تقدم الشعر والنثر– ولا سيما النثر – ارتباطا وثيقا بتقدم اللغة اما اللغة الانكليزية في النصف الاول من القرن التاسع فكانت لا تزال في بدء تكوينها ينقصها كثير من مقومات النضوج والكمال. فهي معقدة اذا قورنت بالانكليزية الحديثة. وظلت اكبر عثرة في طريق تقدم هذه اللغة هي اللغة اللاتينية ، لغة المثقفين في جميع اوربا آنذاك. وبعد الغزو النورماندي دخلت انكلترا لغة اخرى هي الفرنسية، واستعملت في البلاط والجهات الرسمية والمدارس وكانت لغة الطبقة العليا. فاصبحت لزاما على الانكليزية ان تتنافس مع الفرنسية فضلا عن اللاتينية، ولم يتم لها النصر على الفرنسية الا في نهاية القرن الرابع عشر. اما صراعها مع اللاتينية فكان اشد واطول وقد

---

(1) Gibb,P . 15

(٢) المصدر السابق .

(3) Gibb, P. 155

استمر حتى القرن السادس عشر . فهذا سير توماس مور Sir Thomas More « ١٤٧٨ — ١٥٣٥م » يؤلف اهم كتبه —يوتوبيا utopia —باللاتينية . وهذا فرانسس بيكن Francs Bacan «١٥٥٤— ١٦٢٦» يقول ان الانكليزية ستفشل في يوم من الايام كاداة للتعبير عن الامور الخطيرة ، لذا فقد كتب مؤلفاته الفلسفية باللاتينية. ولم تكتسب الانكليزية ثقة جميع المثقفين في انكلترا، وتثبت اقدامها ويعقد لها النصر نهائيا الا بعد عصر النهضة الاوربية اي في القرن السادس عشر. وعبثا نحاول أن نجد كتابا عن قواعد النحو والصرف والبلاغة لهذه اللغة كتب قبل القرن السادس عشر. اذا، فبين النصف الاول من القرن التاسع و القرن السادس عشر طريقة شاقة كان على الانكليزية ان تقطعها قبل ان تستكمل مقوماتها اللغوية وتظهر بشكلها الحاضر. ولننظر الان الى اللغة العربية في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي نجد ان هذه اللغة قد تكاملت مقوماتها ، وبلغت دراسة فقه اللغة والنحو والصرف درجة عالية. فقد ازدهرت مدرسة البصرة والكوفة وقدمت هاتان المدرستان مادة لغوية قيمة. ويكفي ان نذكر ان سيبويه «توفي في ٧٩١م» قد الف كتابه قبل هذه الفترة؛ وهو الكتاب الذي لا يزال يدرس حتى يومنا هذا .

ويصح ما قلناه عن اللغة وادابها على فروع المعرفة الاخرى: كالفلسفة والتاريخ والرياضيات والطب. فهذا الفيلسوف الكندي «توفي في ٨٥٠م» يؤلف اكثر من ٢٦٥ رسالة في مختلف العلوم من موسيقى وفلك ورياضيات وطب وعلم الاخلاق والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة «١» . ويبرز في الرياضيات اسم الخوارزمي «توفي في ٨٤٤م» وقد ترجمت كثير من مؤلفاته في الجبر والفلك الى اللاتينية وعنه اخذت اوربا اللوغرتمات «٢» . واشتهر في الطب ابن ماسويه «توفي في ٨٥٩». ونذكر من مؤرخي القرن التاسع البلاذري

(1) Gibb., P.65

(٢) المصدر السابق Gibb.,

«توفي في ٨٩٢م» واليعقوبي «توفي في ٨٩١م» والمؤرخ الكبير الطبري الذي ولد في هذا القرن «٨٣٩م» وعاش حتى الربع الاول من القرن العاشر «٩٢٣م». هذه اسماء بعض من برزوا في ميادين المعرفة المختلفة في القرن التاسع. فاذا حاولنا ان نبحث في تاريخ انكلترا لهذه الفترة عن اسماء تضاهي تلك التي ذكرناها باءت مساعينا بالفشل.

يتضح من كل هذا ان القرن التاسع يعتبر اول الطريق بالنسبة للانكليزية وادابها، في حين انه كان عصرا ذهبيا «١» بالنسبة للعربية وادابها.

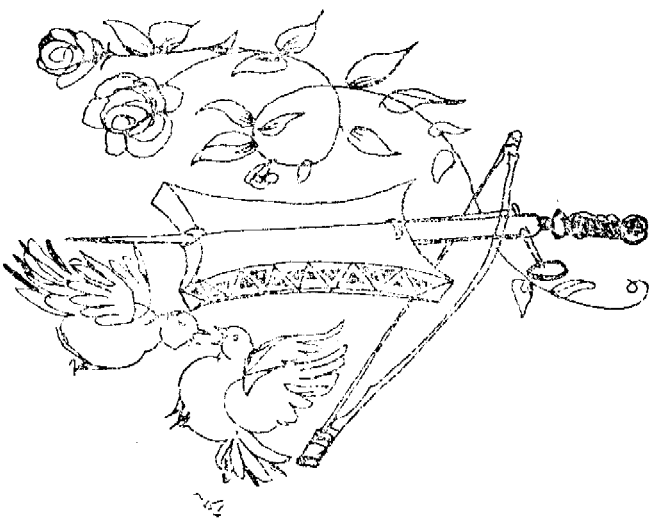

(1) Nicholson,xxx ; Gibb, PP 48